الحج
حِكَمٌ ومقاصد

د/ عبد التواب محمد عثمان

الحج

حِكَمٌ ومقاصد

د.عبدالتواب محمد عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ .

أما بعد

فإن للعبادات في الإسلام مقاصد وأهداف وحكما غالية هي من جملة ما تسعى إلى تحقيقه من أداء هذه العبادات والشعائر.

والمقاصد هي: الأهداف العامة التي تسعى الشريعة إلى تحقيقها.

وللعبادات مقاصد عديدة منها ما هو معلوم ويمكن تلمسه بالتأمل والتفكر، ومنا ما لا يمكن إدراك حكمته، لكن عدم الإدراك لا ينفي وجود الحكمة .

يقول الشاطبي: "وللعبادة مقصد أصلي ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود، وإفراده بالقصد إليه في كل حال، ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس واكتساب الفضيلة.

فالصلاة مثلا أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة والحاجة، وكون المصلي في خفارة الله.

وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله"[١].

إذن للعبادة مقاصد وأهداف أخروية ودنيوية لا تخلو عنها عبادة من العبادات، والحكمة الجامعة في العبادات جميعها تزكية النفوس وتطهيرها وتنقيتها من الشوائب والأدران، وهذا واضح في العبادات جميعها.

ففي الصلاة مثلا يبين الله تعالى جانب التزكية فيها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وكذلك الصوم غايته تحقيق التقوى التي هي تزكية النفس:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣]، وهي غرض الزكاة وهدفها : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[التوبة:١٠٣].

والتزكية مقصد الهدي والنسك –الذي هو عبادة–، ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[الحج:٣٧].

هذا الانشراح في الصدر وتزكية النفس يشعر به المسلم عند أدائه للعبادة، يقول ابن القيم: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه– يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحا فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور، يعني لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة وانشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول"[١].

والحق أن هذه المقاصد والغايات تشمل كل مناحي الحياة عند المسلم فآثار العبادات وأهدافها ينبغي أن تتعدى حدود العبادة التي لا تشغل إلا وقتا قليلا من حياة المسلم .

فالعبادة ليست كيانا مستقلا عما سواها من جوانب الحياة الأخرى، فشخصية

---

[١] الموافقات ٣٠٤/٢ بتصرف .

[١] مدارج السالكين ٦٨/٢ .

العابد المنعزل عما حوله من الدنيا ليست من الدين في شيء، إن العبادة بكل أشكالها غير منعزلة عن واقع الحياة بل هي مدخل للتعامل مع الواقع بكل ما فيه، إن العبادة الصحيحة تصنع شخصية المسلم الحق الذي يطبق منهج العبادة في كل تعاملاته، فالعابد الحقيقي يؤدي عبادته التي تعطيه نظرة شمولية للحياة بكل تفاعلاتها وجوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ....الخ.

ولهذا فإن من أبرز عوامل تخلف الأمة وعدم تحقيقها للريادة المنتظرة منها أنها أمة لا تحسن الإفادة من شعائرها، وتغفل عن الحكم العظيمة المقصودة من الفرائض، إن من أعظم المصائب أن تصير العبادة جسدا بلا روح، وأن يتعامل الناس مع الشعائر بجمود وبرود حتى تتحول العبادات إلى عادات جامدة لا روح فيها ولا مغزى من ورائها.

وليس معنى هذا أن يتوقف الامتثال على معرفة علة الأمر والنهي، فالعبادة شعارها الإيمان بالغيب ولو لم تره، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره، لكن يشرع للإنسان البحث عن علة الأحكام الشرعية، لأنه إذا عرف العلة كان ذلك مشجعا له على الامتثال، وليس من الضروري أن يكون للعبادة حكمة يدركها العقل المحدود، أو يعرف كل تفصيلاتها، بل يجتهد أن يدرك ما يسر الله له منها.

والحج عبادة عظيمة فيها من الحكم والفوائد الكثير، ذلك لأن في الحج إقبال على الله تعالى بأنواع من الطاعات متعددة فيجتمع في الحج ما لا يجتمع في غيره من العبادا ، فهو عبادة بدينة مالية روحية، لذلك فمقاصده عظيمة أشار إليها ربنا تبارك وتعالى في قوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾[الحج:٢٧-٢٨]، وجاء لفظ: " مَنَٰفِعَ" منكرا ليشمل منافع دينية ودنيوية في شتى المجالات.

لكن خفاء الحكمة في بعض مناسك الحج قد يدفع إلى التشكيك في الحكمة الإلهية، وهو تشكيك ينشأ من الجهل بمراد الله عز وجل، وعدم البحث عن أهداف العبادات وغاياتها.

لذلك كان هذا البحث حول بعض مقاصد الحج وحِكَمه في التشريع الإسلامي،

وليس غرضنا الاستقصاء؛ لأن هذا ضد حكمة الله عز وجل، وإنما الغرض التنبيه على أهمية المقاصد والأهداف، ولفت الأذهان إلى المنح الربانية في الحِكَم، ومحاولة لفتح آفاق للتأمل في الشعائر الدينية، ثم إنها نظرة من فهم قاصر وعقل كليل إن وافقت الصواب فهو محض فضل الله تعالى، وإلا فأسأل الله المغفرة والسداد.

ومقاصد الحج نوعان: منها مقاصد كلية تشمل الحج من حيث كونه فريضة شرعية بكل أركانها وسننها، فهي مقاصد عامة، ومنها مقاصد جزئية تختص بكل فعل من أفعال الحج، وأبدأ بالمقاصد الجزئية إن شاء الله تعالى.

السفر

قبل إنشاء سفر الحج والشروع في الفريضة يسن لمن أراد الخروج أن يستشير ويستخير، وهما لا يعودان إلى الحج نفسه فهو خير على كل حال، لكن ذلك يعود إلى حال الشخص وملاءمة الوقت له، وهذا سنة عن النبي ﷺ في كل الأحوال، فعن جابر رضي الله عنه أنه قال: "كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ...."[1].

فإذا بدأ الحاج في سفره يتأمل في بعض حكمه التي منها:

أن الله تعالى وفقه أن ينشئ سفرا في طاعة الله تعالى على حين أن غيره من الناس قد يسافر في معصية ، وأنه عندما يسافر لا يقصد بلدا مما يتخذه الناس مقصدا للسفر للاصطياف أو للنزهة ؛ لكن الله تعالى شاء أن يكون السفر لواد غير ذي زرع لا يصلح للنزهة ولا للسياحة أو الراحة تربية للمسلم على احتمال الشدائد والمكاره، وتعويدا له على المشقة والنصب لله تعالى.

ثم يتذكر أنه عند سفره يقطع كل العلائق الدنيوية، ويقطع علائق القلب عن أن يلتفت وراءه، فيتوجه إلى الله تعالى بقلبه كما يتوجه إليه بجسده، ويقطع العلائق عن وطنه.

ويتذكر وهو يفارق الأهل ويرحل عنهم أنه سيسافر سفرا بعيدا هو السفر الأكبر إلى الله تعالى، سفرا لا عودة بعده يحتاج فيه إلى أن يتزود من التقوى والعمل الصالح كما يتزود بالزاد الدنيوي في سفر الحج ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧].

وليعلم أنه حين يرحل إلى بيت الله تعالى أن هناك من حرم إلى الوصول إلى البيت وحيل بينه وبينه، وأن الله تعالى قد عين من يحج البيت هذا العام كما ورد عن ابن عباس في حديثه عن ليلة القدر: "يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان"[2].

---

[1] البخاري: كتاب "أبواب التطوع"، باب "ما جاء في التطوع مثنى مثنى"، رقم "١١٠٩".

[2] تفسير القرطبي ١٦/١١٠ .

فيجتهد أن لا يُحجب قلبه عن البيت، لأن المحجوب من حجب قلبه وحيل بينه وبين التعلق بالبيت وهو ملاصق له، وكم من بعيد عن البيت قريب منه بقلبه وروحه

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على شوق وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا[1] .

وقد قال بعض السلف: تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر.

وقال بعضهم: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به[2].

فليحذر الحاج أن يكون في بيت الله تعالى وقلبه متعلق بغير البيت.

ثم إن في ذلك عبرة للمقيم. رأى بعض الصالحين الحجاج وقت خروجهم إلى مكة فبكى وقال: واضعفاه، وأنشد:

فقلت دعوني واتباعي ركابكم أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد

ثم قال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت، يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن[3].

---

[1] نفح الطيب ٣٣١/٤ مع تصرف في البيت الأول الذي يقول فيه : يا راحلين إلى المختار من مضر.

[2] إحياء علوم الدين ٢٤٣/١ .

[3] لطائف المعارف صد ٢٥٧ .

المواقيت

لا يجوز للحاج أن يتجاوز المواقيت المكانية إلا بعد الإحرام، فإن تجاوزها دون إحرام رجع مرة أخرى وإلا فعليه دم.

هذه المواقيت تنمي في المسلم روح الانضباط والتعود على الطاعة والنظام، وتغرس في النفس الجندية الحقة التي تعتاد على مراعاة الحدود، فلا يتجاوز المسلم الوقت أو المكان المخصص له، هذا التجاوز يؤثر على صحة العمل وقبوله عند الله تعالى.

وأفعال الحج كلها موقوتة بأماكن وأزمنة محددة تجاوزها يفسد أعمال الحج، وهذا واضح في العبادات كالصلاة والصيام والزكاة، كلها تنمي عند المسلم السلوك المنضبط المحدد في الأعمال؛ الذي يعطي كل ذي حق حقه، وهو مستفاد أيضا من حديث النبي ﷺ: "إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه"[١]

والحقيقة أن هذا النظام الظاهري أو الشكل العام يؤثر في الانتظام العام، وعدم مراعاة هذه الضوابط يؤدي إلى الخلاف الذي أشار إليه النبي ﷺ في تسوية الصفوف في الصلاة: "ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم"[٢]

---

[١] البخاري : كتاب "الصوم" باب "من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له"، رقم "١٩٦٨". .

[٢] صحيح مسلم : كتاب "الصلاة"، باب " تسوية الصفوف، وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل، وتقريبهم من الإمام"، رقم"٤٣٢".

الإحرام

وهو مفارقة الثياب المخيطة ولبس ثوبي الإحرام وما يتبع ذلك من أعمال ومحظورات محرمة طوال مدة الحج، وله حكم عظيمة منها:

أن العبد بدأ سفرا في طاعة الله عز وجل وبإحرامه يعلم أنه لا يصل إلى الله عز وجل إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات من الأمور الحياتية، ولهذا كان الرهبان في الملل السابقة ينعزلون عن الناس ويفرون إلى الجبال ابتعادا عن صخب الحياة وشهواتها وطلبا للقرب من الله تعالى، فالحج رهبانية من حيث كونه تخل عن التنزه وإقبال على الله تعالى.

ويستتبع ذلك التخلي عن مألوف العادات التي اعتادها الإنسان في حياته وسائر أنواع الزينة مما يعطي المسلم انطباعا أنه قادر على الاستغناء عن الثياب وعن هذه الزينة في كثير من حالاته، وأنه ليس أسير عادة تتحكم فيه فإذا انصرمت عنه أو حيل بينه وبين أدائها شقت عليه الحياة، بل يعلم أن العادات أسيرة لأمر الله عز وجل.

ثم إن في الإحرام رجوع إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها دون تزين أو تجمل، ورفض لكل المقاييس الوهمية التي يتفاضل الناس على أساسها، وعودة إلى الإنسان المجرد عن كل ما يمكن أن يتفاضل به مما هو خارج عن ذاته وحقيقته وأعماله .

وهنا يلحظ أن هذا التغيير في المظهر هو مجرد إشارة إلى ما سيحدث من تغيير جوهري في النفس من فريضة الحج، أو بمعنى آخر أن محاولة التغيير في النفس لا بد أن يكون معها إعلان عن هذا التغيير مظهريا، هذا المظهر يعطي نية التغيير ويدل على صدق هذه النية؛ لأن فيه إشارة إلى الانسلاخ عن كل عائق دنيوي ومظهري يحول بينه وبين رجوعه إلى الله تعالى.

هذا الشكل المظهري هو ما جعل سعد بن معاذ – قبل إسلامه – يقول عن أسيد بن حضير لما ذهب كافرا ورجع مسلما : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه

الذي ذهب به من عندكم[١] .

وهذا ما أكده الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا كان يأكل أكلا كثيرا فأسلم فكان يأكل أكلا قليلا، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء"[١].

ثم إن بياض هذه الثياب يشير إلى بياض القلب وصفائه ونقائه وطهارته الذي هو فرع لبياض الرسالة ونقاء منهجها ووضوحه للناس أجمعين.

ثم هو يشير من طرف آخر إلى هيئة الكفن التي يقابل العبد بها ربه، فالتلازم بين ثياب الإحرام والكفن واضح، وهو ما يرمز إلى أن هذا السفر أشبه بالسفر إلى الآخرة حيث يتجرد المسلم من كل العلائق والعوائق وسائر ما ينشغل به أهل الدنيا في دنياهم .

ويبقى أن توحيد اللباس على الجميع إشارة إلى توحيد الكلمة ووحدة الأمة.

---

[١] السيرة النبوية لابن كثير ١٨٣/٢.

[١] البخاري : كتاب " الأطعمة"، باب "المؤمن يأكل في معي واحد"، رقم "٥٠٧٨". .

التلبية

يأتي مع الإحرام رفع الصوت بالتلبية، فكما أنه ينسلخ عن كل علائق الدنيا فإنه يرفع صوته بإعلان هذا الانسلاخ (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

هذه التلبية رمز لهوية المسلم وإعلان لشخصيته بين الناس، وهنا تتجاوب الدنيا كلها مع هذا النداء، فقد قال ﷺ: "ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر وشجر حتى تنقطع الأرض من هنا وهنا"[١].

هذا التجاوب من كل مخلوقات الأرض هو الفارق بين الشعار السماوي وأي شعار أرضي، فالشعار السماوي يلبي به الملبي فتتجاوب أصداؤه في الدنيا بأسرها لأنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أما الشعار الأرضي فيبقى حبيس أنفاس من ردده فقط.

وهو حين يلبي يحمد الله تعالى أن وقفه لأن يصرف العبادة له وحده دون سواه، وأن وفقه للحق وقد صرف عنه كثيرون فيشعر بوجل وخوف ألا يقبل الله تعالى تلبيته وأن يردها عليه مرة أخرى، حج جعفر الصادق فأراد أن يلبي فتغير وجهه فقيل: ما لك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن ألبي فأخاف أن أسمع غير الجواب[٢].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: رأيت أبا سليمان الداراني أراد أن يلبي فغشي عليه فلما أفاق قال: يا أحمد بلغني أن الرجل إذا حج من غير حله فقال: لبيك اللهم لبيك. قال له الرب: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك. فما يؤمنني أن يقال لي هذا. ثم لبى[٣].

فيجتهد العبد أن يحقق هذه التلبية وأن يصرفها لله عز وجل.

---

[١] صحيح ابن خزيمة: باب "ذكر تلبية الأشجار والأحجار اللواتي عن يمين الملبي وشماله عند تكبير الملبي" رقم "٢٦٣٤".

والبيهقي في الشعب: "فصل في الإحرام والتلبية ورفع الصوت بهما"، رقم "٤٠٢١".

[٢] المدهش ١٤٧/١ .

[٣] صفة الصفوة ٢٢٨/٤ .

ثم تتسع دائرة التلبية مرة أخرى لتكون أكثر شمولا لكل نداءات الله تبارك وتعالى التي يأمر بها المسلم في سائر أحواله، فمن: "لبيك" في الحج إلى: "لبيك" في كل ما تأمر به، فمعنى "لبيك" : أي سمعا وطاعة مرة بعد مرة في كل ميادين الحياة، معناها: إذا غفل الناس عن دستور حياتهم أعلنا ولاءنا للمنهج والرسالة الحقة وقلنا : لبيك ، إذا حاد الناس عن شرعك وتحكيمه أعلنا رضانا بشريعتك وقبولنا لها دون قيد أو شرط فقلنا : لبيك ، فنحن يا رب ملبين في كل أحوالنا ، " لا شريك لك لبيك " لا نطيع سواك ولا نخضع لغيرك ولا نسمع لقول سوى قولك ولا نقر ولا نستجيب إلا لمن كانت طاعته من طاعتك ، ولهذا فإن المترتب على ذلك كله وهو الحمد لا يجوز أيضا إلا لك " إن الحمد والنعمة لك والملك " لأنك المنعم الحقيقي الذي لا يستحق الحمد إلا هو .

دخول مكة ومشاهد الكعبة

إذا دخل مكة يتذكر أنه يدخل بلدا بارك الله فيه وجعله حرما آمنا يأمن الناس فيه فيرجو أن يأمن عقاب الله وعذابه بدخوله في طاعة الله على العموم.

فإذا شاهد الكعبة يستحضر عظمة هذا البيت الذي شرفه الله تعالى وفضله وبارك فيه، ويعلم أن له دعوة مستجابة حين رؤية هذا البيت.

ثم يستحضر أنه ينظر إلى بيت الله تعالى، فيسأله جل في علاه أن يرزقه لذة النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة كما رزقه لذة النظر إلى بيته في الدنيا.

الطواف

تأتي عبادة الطواف لتحقق حكما عظيمة ومقاصد جليلة منها:

أن الإنسان اعتاد أن يؤدي العبادة بصورة فردية أو بصورة جماعية على مستوى المحيطين به في البلد أو القطر فإذا به في الطواف تتسع الدائرة وتنفتح في العبادة على مستوى الأمة كلها من حيث العدد والأماكن التي أتوا منها، فهي أول عبادة يؤديها مع هذا العدد الهائل المتنوع فتكون عبادة الطواف على مستوى حجم الأمة فتتحقق العالمية في روحية هذه العبادة، وهنا يتحقق هدف صنع المسلم العالمي الذي يتحرر من إقليميته وعائلته ليعيش مع ركب المسلمين جميعا في العالم أجمع، وعندها يخرج المسلم من أسر القضايا والمشكلات الخاصة إلى معايشة القضايا والمشكلات العامة للأمة فتتوسع النظرة الضيقة ويعيش حياة رحبة بحجم الآم المسلمين وآمالهم فيفكر بحجم العالم وتتسع طموحاته وآفاقه.

ثم هو حين الطواف حول الكعبة التي هي المحور والمركز يعتاد أن يكون مركز حركته ومحوره أمر الله تعالى، فهو يطوف حول الكعبة بشروط وقيود ثم هو في كل حاله يدور حول أمر الله تعالى ويتقيد به ويجعله مركز الحركة في حياته كلها، فهو في الحج في طواف حول الكعبة وفي حياته القادمة في طواف حول شريعة الله تعالى.

وهنا تبرز أهمية أنه لا بد من قضية عامة تتمحور حولها الأمة، هذه الجموع الغفيرة المتحدة الشكل التي تطوف حول الكعبة وجدت مركز الطواف في العبادة، وفي الحياة العامة توجد أعداد غفيرة من المسلمين لكن المشكلة هي وجود الفكرة التي تتوحد حولها الأمة، إذن لا بد من فكرة محورية أساسية تجمع كل أبناء الأمة، قد تكون هذه الفكرة مثلا مقاومة للمحتل، أو إعادة تحكيم شرع الله، أو تعليم الأمة أمور دينها إلى غير ذلك مما يمكن أن يجتمع عليه المسلمون.

وبالطواف تظهر الكعبة منارة الإسلام وعلمه الخاص، فالطائف حول الكعبة جندي يطوف حول العلم ويتمسك به ويجتهد في أن يظل مرفوعا عاليا، فالكعبة محور الكون في حركة المسلم الذي منه ينطلق ليحقق هذا المعنى في الكون كله متمسكا بهذا

المحور فيتوجه إليه في كل صلاة له حتى يصير محور الكون والحركة ماثلا أمام عينيه.

وحين يتعلق قلبه بهذا البيت فإنه ينخلع عن كل ما سواه من البيوت الحسية والمعنوية ولا يتوجه إلا إلى هذا البيت فيعلن ولاءه له ويخلع كل ما عداه من الولاءات الأخرى.

ثم إنه في طوافه يشرع له أن يستلم الحجر الأسود أو أن يشير إليه إن لم يمكنه أن يستلمه، وهو في هذا يعتقد أنه يبايع الله تعالى على الطاعة والوفاء بها والقيام بحق الله عز وجل بعد ذلك في كل أموره ، فبهذا الاستلام عاهد الله تعالى على أن يكون وفيا على ما كان عليه في الحج.

وفي هذا الاستلام يتذكر ذنوبه وذنوب من سبقه من العالمين التي سودت هذا الحجر كما ورد عن النبي ﷺ: "نزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا بني آدم"(١)، فيعاهد الله تعالى أن يقلع عن الذنوب وألا يُسَوِّد صحيفته بذنب وأن يبقيها بيضاء عوضا عن تسويد الحجر الأسود.

ويسن في الطواف الرمل، وهو: الإسراع في المشي مع تقارب الخطى وذلك في الأشواط الثلاثة الأولى.

وقد كانت هذه سنة النبي ﷺ ردا على مكائد الأعداء الذين أشاعوا أن المسلمين قد أصابتهم حمى يثرب فضعفوا فكان رد المسلمين على الشائعة عمليا ببيان قوتهم الحقيقية وتمحيص شبهاتهم التي يرددونها، وهنا يأتي النصر الحقيقي على الأعداء الذي هو نصر النفوس واستعلاؤها وعدم تمكين العدو من إضعاف هيبتنا وقوتنا، وهو تدريب عملي للأمة كيف ترد على الشبهات الموجهة إليها وألا تتركها حتى تؤتي ثمارها في أصحاب النفوس الضعيفة، بل نواجهها ونحاصرها ونرد عليها ردا عمليا يزلزل العدو ويبين كذب ادعائه.

---

(١) الترمذي: كتاب "أبواب الحج"، باب " ما جاء في فضل الحجر الأسود، والركن، والمقام"، رقم "٨٧٧".

وبعد الطواف تأتي سنة أداء ركعتي الطواف والشرب من ماء زمزم، وكأنها فاصل للاستراحة بين عملين من أعمال الحج [الطواف والسعي] وفرصة لتستريح النفوس من تعب أداء عبادة حتى تستعد لأداء أخرى.

السعي بين الصفا والمروة

وفي السعي بين الصفا والمروة ربط للأمة بتاريخها ووصل بينها وبين ماضيها؛ تأتنس به وتسير على خطاه، وصلة بين أوائل الأمة وأواخرها، أمة الإسلام التي كان إبراهيم عليه السلام من أوائلها فيتذكره المسلم خاصة وقد قال ﷺ: "قفوا على مشاعركم هذه فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم"[١].

فيشعر المسلم بعمق الصلة بينه وبين إبراهيم عليه السلام وهو الذي كان رمزا لعقيدة التوحيد ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩]، فمن تمام هذا الارتباط ومن مكملات هذا الإرث أن يرث إبراهيم عليه السلام في كل شيء: ينبذ الطواغيت، يثبت على مبدئه، يتحمل كامل مسئوليته، يرفع شعار التوحيد، يتوكل على الله، يثق في نصر الله عز وجل، يترك زوجه وولده وهو يعلم أن من كان الله معه فلن يضار، سمو في التوكل على الله عز وجل.

وهنا في موقف هاجر حكم عظيمة:

أن مبدأ الابتلاء للدعاة لازم، وحقيقة لا تتخلف، إذا كان الماء عند هاجر فقد نضب وفقدت شراب وليدها، فإن كل سائر إلى الله عز وجل لا بد أن يجد في مسيره فتنة ومعوقات وابتلاءات ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢] إنها سنة لا تتخلف تعني: أن كل من سار على الطريق لا بد أن يتعرض لمحن وتمحيص ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٢].

ومواجهة الابتلاء تكون بمحاكاة حركة هاجر، إيجابية وحركة فعالة، لما لم تجد الماء قامت وتحركت بعزم وتصميم وإرادة على أن تقدم شيئا لوليدها مع أنها لا تملك في يدها شيئا، ولا تستطيع غير أن تسعى وتبحث بدأب وجلد عن الماء فلا تجده

[١] أبو داود: كتاب "المناسك"، باب " موضع الوقوف بعرفة"، رقم "١٩١٩" ، وسنن النسائي: كتاب "مناسك الحج" ، باب "رفع اليدين في الدعاء بعرفة"، رقم "٣٠١٤".

فتعاود الكرة مرة بعد أخرى حتى سبع مرات. إيجابية وحركة منتجة، لم تجلس لتنتظر وتبتهل إلى الله تعالى بالدعاء مع أنها القائلة قبل قليل لزوجها: "إذا لن يضيعنا" لكنها تعلم أنه لن يضيعهم إذا فقهوا سنة الحركة والعمل والأخذ بالأسباب.

وهنا درس للدعاة أن من تصدى لخير أو ابتدر لعمل عليه ألا ييأس من إخفاقه مرة أو اثنتين أو أكثر، بل يجتهد ويكرر التعب ويحاول المعاودة عسى أن يستجاب له فإن من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، ففي تكرار السعي إفادة لأهمية المحاولة، كمثل من يتردد بفناء الملك يستعطفه ويسأله المغفرة مرة بعد أخرى ولا يزال يداوم الطلب والسؤال يرجو أن يُرحم في الثانية إن لم يُجب في الأولى وهكذا.

وهنا فقه التوكل الحقيقي: أخذ بالأسباب مع معرفة أن معونة الله تعالى فوق الأسباب وإرادته تعالى حاكمة على الأحداث. سعي وأخذ بالسبب وحركة وبذل للجهد والطاقة ثم انتظار للفرج من الله تعالى العليم القدير مسبب الأسباب.

وفي محاكاة فعل السيدة هاجر في سعيها بين الصفا والمروة في أفعال الحج بيان لمنزلة المرأة في الإسلام يحاكيها الناس في كل وقت، ويأخذون منها عبرة وعظة ويربطون شعائرهم بها، ويطلبون من الله أن يفرج عنهم ويستجيب دعاءهم كما فرج عنها واستجاب دعاءها.

الوقوف بعرفات

وهو ركن الحج الأعظم الذي لا يتم إلا به، حيث يجتمع الكل في هذا المكان في مؤتمر سنوي خاص بالأمة الإسلامية تستعرض أحوالها وتناقش مشكلاتها وتتجاوز آلامها وتبني آمالها منصهرة في بوتقة واحدة لا تعرف حدودا ولا إقليما ولا نظرة ضيقة إلى حدود والمكان والوطن وسائر ما يعوق المسلم عن أداء دوره العالمي.

ولهذا كان شعار هذا اليوم كله كلمة التوحيد: "خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" [١] إشارة إلى أن الأمة لا يمكن أن ترتفع رايتها ولا تتوحد كلمتها إلا تحت راية التوحيد الخالص لله رب العالمين الذي يلتف حوله الجميع دون منازع.

وهنا مشهد حقيقي يذكر باليوم الآخر بكل ما فيه، حيث صورة مصغرة للناس؛ تعب ونصب وجهد وانتظار للفرج من الله تعالى، وتفاوت أحوال الناس يوم عرفات بين مقبل على الله تعالى وآخر غافل ثم هم كذلك يوم القيامة في موقف مهيب ينتظرون فصل القضاء، فمنهم من يأخذ كتابه باليمين ومنهم من يساق إلى النار أعاذنا الله منها.

وهنا تتأرجح نفس المسلم بين موقفين عظيمين: موقف خوف وموقف رجاء.

خوف من الله تعالى ألا يقبله مع هذه الجموع وأن يرده خائبا حسيرا، خوف عندما يتذكر ما مضى في أيام عمره من تفريط وتقصير، ثم يتذكر خوف السلف رضوان الله عليهم في هذا المقام.

وقف بكر بن عبد الله المزني وعبد الله بن الشخير يوم عرفة فقال أحدهما: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لولا أني فيهم[٢].

---

(١) سنن الترمذي: كتاب "أبواب الدعوات" رقم"٣٥٨٥"، وصحيح ابن حبان، والسنن الكبرى للبيهقي، وموطأ مالك، ومصنف الرزاق، ومسند أحمد.

(٢) لطائف المعارف ١/٣١٠ .

فإذا رأي تضرع الناس وخشيتهم وسؤالهم لله تعالى وخشوعهم خضع وخشع وغلب عليه الرجاء، عندها يتذكر قول النبي ﷺ: "ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ماذا أراد هؤلاء؟"[١].

فيتذكر سعة رحمة الله تعالى ومغفرته وفضله فيرجو أن يصيبه من هذا الفضل وأن ينال من رحمة الله عز وجل.

جاء ابن المبارك إلى سفيان الثوري عشية عرفة فسأله: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ فقال: الذي يظن أنه لا يغفر له.

ونظر الفضيل إلى الحجيج يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانقا "سدس درهم" أكان يردهم؟ قالوا: لا. قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق[٢].

حينئذ يقف تأمل واستبصار ونقد لما كان من حياته وتطلع إلى ما سيكون عليه بعد الحج، نقطة انطلاق يسعى منها إلى ما يبتغيه في دنياه وأخراه فيفترق الناس فريقين ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ٢٠٠-٢٠١].

فريق مهموم بالدنيا حريص عليها لا ينساها حتى حين يدعو الله عز وجل، ينشغل قلبه بها حتى في لحظات الإقبال على ملك الملوك.

وفريق آخر موصول القلب بالله عز وجل يعلم أن همه الأكبر هم الآخرة مع أنه لا ينسى نصيبه من الدنيا، ويترك لله عز وجل تقدير ما يحتاج ويرضى بقضاء الله تعالى.

وفي هذا الدعاء إشعار بأن المسلم غير مقطوع الصلة بالدنيا ولا راغب عنها بالكلية ؛ إنما يأخذ منها ما يعينه على أمر دينه ، ويطلب من دنياه ما يتبلغ به إلى

---

(١) مسلم : كتاب " الحج" باب " في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة"، رقم "١٣٤٨".

(٢) لطائف المعارف ١/٣١٠ .

آخرته ويُطَوِّع الدنيا لخدمة الآخرة.

وبين هذه الجموع وفي هذه الوقفات للمسلم لا ينسى عدوه الأكبر الذي يتربص به الدوائر ويتمنى لو يصده عن سبيل الله عز وجل، وقد أخبر ﷺ أنه في هذا اليوم مدحور: "ما رئي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رئي يوم بدر"(٣).

فيجتهد الحاج أن يجعله حسيرا مدحورا على كل حال، ولا يعطي لعدو الله فرصة للغلبة أو الانتصار والزهو بوقوع المسلم في ما يغضب الله عز وجل فيعاهد الله تعالى أن يظل عدو الله مكسورا حزينا طالما هو مقيم على الطاعة وفي بالعهد محافظ على السلوك المستقيم.

ثم يعلم الحاج وهو يرى هذه الجموع المحتشدة التي تجأر بالتلبية أنها استجابت لنداء إبراهيم عليه السلام الذي دعا لما أمره الله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[الحج:٢٧]، ولما اعتذر بأن صوته لا يبلغ قال الله تعالى: "أذن وعلي البلاغ"(١). فصوته الضعيف بلَّغ الأمة إلى يوم القيامة، وهنا تبرز حقيقة دور الداعية الحقيقي الذي يفقه الدور المنوط به جيدا، وأنه ليس عليه إلا البلاغ مهما كان صوته أو إعلامه ضعيفا ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[الشورى:٤٨]- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧]، إن كل مهمته أن يصدع بما عنده مجاهدا أن يصل صوته لأقصى ما يمكنه ذلك دون انتظار نتيجة، ما عليه إلا أن يحسن العرض ويُجَوِّد الأداء.

(٣) شعب الإيمان: كتاب "المناسك"، باب "الوقوف يوم عرفة بعرفات، وما جاء في فضله، والأصل في رمي الجمار والذبح"، رقم"٣٧٧٥".

(١) رواه الحاكم في المستدرك: رقم "٣٤٦٤" وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ثم يفقه حقيقة أخرى وهي أن جهده ليست له قيمة ما لم يستمد العون من الله تعالى ، فإذا كلل الله جهده بالمعونة والتأييد وصل صوته وانتشرت دعوته وعمت رسالته "وعليَّ البلاغ"، وأن الله إذا بارك جهوده تضاعفت النتائج وعظمت الثمار

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

وفي وسط هذا الجمع الغفير يعلن النبي ﷺ المساواة التامة بين الأفراد جميعا فلا تميز لأحد على أحد ولا فضل إلا بمقدار ما لديه من خير وصلاح "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح"[٢]، فتلغى كل امتيازات قريش السابقة التي تدفعهم إلى الاستعلاء على الآخرين، ويتساوى الجميع أمام الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[البقرة:١٩٩][٣].

---

(٢) مسند أحمد رقم "٢٣٥٣٦" .

(٣) البخاري: كتاب "الحج"، باب "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس" رقم "٤٢٤٨".

أعمال يوم النحر

تتنوع الأعمال في هذا اليوم العظيم ما بين نحر وحلق ورمي، وفي كلها مقاصد عظيمة.

ففي النحر الذي هو في أصله مشابهة لفعل إبراهيم عليه حيث ضحى فداء لولده إسماعيل بعد أن استسلم لأمر الله وقضائه فكان الفداء بعد الاستسلام.

فالحاج الذي يذبح لله تعالى يحمد الله أولا أن وفقه إلى أن لا يذبح إلا لله تعالى مع وجود أقوام يذبحون لغير الله عز وجل، فالذبح نسك لا يجوز إلا لله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢].

وعندما يذبح الحاج فإنه يتمثل سلوك إبراهيم عليه السلام في مدى امتثاله لأمر الله عز وجل وتقديم مراد الله تعالى على هواه، فحرارة الإيمان في القلوب تعلو وتتغلب على حرارة العاطفة الأبوية مهما كانت شدتها كما في حالة إبراهيم عليه السلام، ويقدم أمر الله تعالى على هوى النفس ومحابها، فلا تمنعه لذة أو شهوة – حتى وإن كانت حلالا– عن إقامة أمر الله تعالى فيرجع من الحج مقدما لأمر الله ، فإذا ما تعارض أمر الله تعالى مع قانون أو عادة أو عاطفة فإن أمر الله تعالى له التقديم ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب: ٣٦].

إن القضية ليست في الذبح وإنما هي اختبار واقعي لجدية الاستعداد للتضحية والتغلب على العوائق والتهيؤ لتنفيذ أمر الله تعالى حتى وإن كان الأمر التضحية بالنفس

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها**والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ثم إن الهدي مصلحته عائدة على صاحبه، فالله عز وجل غني عن عنه وإنما غايته ومقصده ما يتحقق في القلب من تقوى الله عز وجل وتعظيم أمره واستسلام المرء لحكمه﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾[الحج: ٣٧].

ولأن الله تعالى أنزل على إبراهيم عليه السلام الفداء بعد الاستسلام فذلك إشارة

إلـى أن الله تعـالى لا ينـزل مـدده ولا نصـره إلا علـى مـن توكـل علـى الله حـق توكلـه واستسلم غايـة الاستسـلام وبـذل من نفسـه وروحـه وولـده وكـل مـا يملـك لله تعـالى، حينئذ فقط ينزل النصر من الله، فلا فرج إلا بعد استسلام وتوكل حقيقي.

وفـي الحلـق أو التقصـير إشـارة ورمـز لـزوال الـدنس مـن الـنفس والـروح كمـا يـزال الشعر من الرأس، وقد سبق أن التغيير في الجوهر يصحبه تغيير في المظهر، فيرجع بعد الحج وقد تغير شكله وصورته فينبغي أن يتغير في مضمونه وجوهره أيضا.

وفـي التخيير بين الحلق والتقصير – مع تفضيل الحلق – إشارة إلى سعة رحمة الله تعالى بهذه الأمة وأن هناك دائما متسعا لـلآراء المخالفة ما دامت مقبولـة ولها وجه أيا كان قائلها.

وفـي رمـي الجمـرات مراغمـة للشـيطان وإعـلان للعـداوة معـه، وإظهـار أن سـبيل المسلم مغاير لسبيل الشيطان فيعلن هذه العداوة ويجهر بها، بل يبدأ المسلم بمحاربته فلا يقف موقف المدافع بل يهاجمه ليدفع عنه أذاه قبل أن يصل إليه.

ثـم هـو حـين الرمـي يكبـر الله تعـالى، وهـو إشـعار أنـه حـين يرمـي الشـيطان بالجمرات فإنه يعلن انتصاره لدينه ووفاءه لعقيدته، وأن الله تعالى فوق كل قدرة وقوة فهو يعلن البراءة من العدو ويعلن الولاء لله تعالى وحزبه.

ثم إنـه وقت رمـي الجمـرات يتذكر أن هنـاك شـياطين للإنـس أولـى بـالرجم مـن شيطان الجن؛ لأن خطرهم أعظم ومصيبتهم آكد، فإذا رمى الجمرات – وهـي من أواخر أعمـال الحـج – كأنـه يقف ليرى أمامـه كل شياطين الإنس التـي مرت بـه فيرميهـا مـع شيطان الجن فيعود من الحج وقد تخلص من كافة شياطينه ورجع إلى الحياة ليحارب كل شياطينها ويرجمها بإيمانه وعزيمته، ويتغلب عليها بطاعته.

وفـي تكرار الرجم إشارة إلى أن محاربـة الشيطان ليست قضية وقتيـة أو قضـية يحياها الإنسان مرة واحدة في حياته ثم تنتهي، بل هي قضية متجددة يحياها كل وقت ويعيشها مع كل وسوسة وكل نزوع إلـى المعصية فيرجمـه مرة بعد مرة كلما وسوس لـه مرة بعد أخرى.

وفـي كـون الطـواف حـول مركـز واحـد هـو الكعبـة ورمـي الجمـرات ثـلاث مـرات

إشارة إلى أن طريق الله تعالى واحد مستقيم لا يتعدد وطرق الشيطان كثيرة متعددة "خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما. قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[الأنعام:١٥٣]"(١).

وفي ترتيب هذه الأعمال يوم النحر ورد أنه ﷺ ما سئل عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: "افعل ولا حرج"(١).

وفي ذلك تأكيد لأهمية التيسير على الناس والتخفيف على المكلفين لا سيما في أوقات الأزمات والشدائد والازدحام حيث يحتاج الناس إلى مخرج شرعي لأزماتهم دون تقصير أو مخالفة، وقد ورد مثل ذلك في قصة طالوت مع قومه ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾[البقرة:٢٤٩] فأعطاهم فرصة لأن يلتقطوا أنفاسهم ويرووا عطشهم مع عدم مخالفتهم للأمر.

---

(١) مسند أحمد رقم "٤٤٣٧"، وقال محققه: إسناده حسن، وعند الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(١) البخاري: كتاب "فضل العلم"، باب "الفتيا وهو على الدابة وغيرها".

حِكَمُ الحج العامة

هذه بعض الحكم العامة المستفادة من مجمل أعمال الحج، فهي مقاصد عامة تستفاد من سائر أعمال الفريضة:

١- **ربط الأمة بتاريخها** واستشعار ما في هذه الأماكن من ذكريات جميلة ارتبطت بأنبياء الله السابقين .

فيتذكر إبراهيم عليه السلام وبناؤه للبيت وهجرته بزوجه وولده إلى واد غير ذي زرع وما حدث له من بلاء، ونداؤه بالحج امتثالا لأمر الله تعالى، ثم يتذكر ما حداث مع السيدة هاجر ورضاها بقضاء الله تعالى وسعيها بين الصفا والمروة وإيجابيتها وتوكلها على الله تعالى ومدد الله لها.

ويتذكر إسماعيل ومساعدته لوالده في بناء البيت ثم طاعته له واستسلامه لأمر الله تعالى بالذبح ونزول الفداء من الله عز وجل تكرمة لهذه الأسرة المباركة.

ثم يتذكر مكة وبعثة النبي ﷺ ونزول الوحي عليه وما لاقاه من البلاء والشدة والعنت، وانطلاق النور من هذه البقعة المباركة، ويرتبط بقبلته التي يتوجه إليها في كل صلاة.

٢- تأصيل قضية التوحيد وتحقيق العبودية لله.

فالحج يُتوجه به إلى الله تعالى ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾[الحج:١٩٦]، وحج النبي ﷺ على رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي ثم قال: "اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة"[١].

ويؤصل القرآن الكريم هذه القضية ففي أثناء الحديث عن الحج يأتي الحديث عن بعض صور السرك والتحذير منها ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾[الحج: ٣٠-٣١].

ويظهر إعلان التوحيد أيضا من خلال إفراد الله تعالى بالتشريع ، فله تعالى

---

[١] ابن ماجة: كتاب "الحج"، باب "الحج على الرحل"، رقم "٢٨٩٠".

الحكمة المطلقة في تشريع ما يريد دون أن يكون في ذلك علة ظاهرة للعبادة سوى امتثال الأمر، وليس لمن دون الله تعالى حق التشريع، فيكون كل تشريع مخالف لأمر الله باطل ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورى: ٢١].

وتتحقق العبودية لله عز وجل في الحج، ففيه تذلل وخضوع وانكسار متمثل في مفارقته لأهله وبلده حتى ثيابه، وتلبيته لله عز وجل وتضرعه، هذا هو مقصد العبودية الأعظم، كمال الذل والانقياد لله، كلما زادت الذلة لله والخضوع والانكسار ارتفع فوق مطامع الدنيا وأحس بالعبودية الخالصة لله عز وجل.

العبودية التي تعني كمال الحب مع كمال الذل لله وكمال الانقياد والخضوع والمتابعة والاستسلام للأمر دون معرفة الحكمة أو العلة، وهذا ظاهر في أغلب أعمال الحج، وهنا تظهر مقالة عمر رضي الله عنه لما جاء إلى الحجر الأسود فقبله وقال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"[١].

فما البيت والأركان والحجر والصفا ** وما زمزم ؟ أنت الذي قصدناه

وأنت منانا أنت غايـــــة سؤلنا ** وأنت الذي دنيا وأخرى أردناه

كمال المتابعة والانقياد الذي يمتد أثره بعد ذلك إلى باقي أوامر الله تعالى وأحكامـــــــه﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحـــزاب: ٣٦]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

٣- اتباع النبي ﷺ:

فأعمال الحج كلها واردة عن النبي ﷺ وقد قال: "لتأخذوا عني مناسككم"[٢]، فالإحرام كإحرامه ﷺ، والتلبية كتلبيته، والطواف كطوافه، والرمي كرميه، لا تصح مخالفته، ولا يصح حجه إن خالف النبي ﷺ في شيء من أفعال الحج، وهنا وجوب

[١] البخاري: كتاب "الحج" باب "ما ذكر في الحجر الأسود"، رقم "١٥٩٧".

[٢] مسند الشاميين للطبراني، رقم "٩٠٨"، والسنن الكبرى للبيهقي بلفظ "خذوا عني مناسككم"، رقم "٩٥٢٤".

طاعة النبي ﷺ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[الحشر:٧] إنها الطاعة المطلقة للنبي ﷺ.

٤- تحقيق الأخوة الإسلامية:

اتحاد الرابطة بين المسلمين جميعا، حيث يأتي الجميع من أجناس مختلفة وأمم متباينة وشعوب متعددة فإذا بالجميع ينصهر في زي واحد يسعى لهدف واحد، يؤدي نفس الأعمال، يحمل ذات الهموم، يتعلق بآمال واحدة، الكل على قلب رجل واحد.

إنه إعلان عن اتحاد الأمة على كلمة التوحيد الذي لا ينطلق إلا من هذه الشعيرة التي لا تعترف بحدود ولا إقليمية ولا قوانين، إنما هو قانون العقيدة الواحدة التي تربط المسلمين جميعا.

إن الحج يقرب بين المسلمين ويوحد الآمال والآلام، إن من النفوس نفوسا أمارة بالسوء تنزع إلى التفرد ولا ترضي بالخلطة وتجنح إلى المخالفة وليس كالحج لهذه النفوس حيث الناس جميعا صفوف متشابكة لا يفرق بينهم حسب ولا جاه ولا زي، طارت عن الجميع كبرياء الألقاب وعزة الأنساب ومخيلة الأثواب فانطوى الجميع تحت لواء واحد لا يرضى به بديلا.

إنه مؤتمر عام للأمة الإسلامية ومعرض لحضارة الدنيا وشئون الخلق تجدد فيه الأمة علاقاتها وتصنع ولاءاتها وتحدد أهدافها.

٥- تذكر اليوم الآخر:

فالحاج لا يغفل عن تذكر أمور الآخرة في كل أفعال الحج، فهو نموذج مصغر ليوم القيامة من الزي والسفر والتجمع في مكان واحد وانتظار الفرج من الله تعالى مع ما يصحب ذلك من التعب والنصب والمشقة الكاملة.

ولذلك أشار رب العزة تبارك وتعالى إلى هذه المشابهة في قوله تعالى ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[البقرة:٢٠٣] فكما جمع بعضكم في صعيد واحد يجمعكم جميعا يوم القيامة في أرض المحشر للجزاء والحساب.

٦- قصد مخالفة المشركين في شعائرهم:

وهذا واضح في الحج كل الوضوح حيث يعلن المسلم تميزه عن غيره من الناس في كل أحواله، في زيه وسلوكه وعاداته وكلامه وعباداته، ذلك أن مكانة المسلم لا تضاهيها مكانة، وقد عمد النبي ﷺ إلى مخالفة المشركين في أفعال الحج، من ذلك:

- كان أهل الجاهلية إذا لبوا قالوا: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، تلبية مقرونة بالشرك، فلبى النبي ﷺ بالتوحيد الخالص.

- كان الجاهليون يعتقدون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض كما ثبت عن ابن عباس[١]، فخالفهم النبي ﷺ واعتمر في أشهر الحج.

- كانت قريش لا تقف بعرفة كما يقف سائر الناس لأنهم أهل الحرم، فخالفهم النبي ﷺ وألغى امتياز قريش ووقف بعرفة حتى غربت الشمس ثم دفع.

- كان أهل الجاهلية يتأخرون في الدفع من مزدلفة حتى تشرق الشمس ويقولون: أشرق ثيبر[١] كيما نغير، فخالفهم النبي ﷺ وأفاض من مزدلفة قبل شروق الشمس.

تميز للمسلمين وسد لكل باب يفضي إلى المشابهة مع الكفار، وإعلان لاستقلال هذه الأمة في شعائرها وسائر أحوالها وتأصيل لقضية الولاء والبراء.

٧- تأصيل للأخلاق الحسنة:

ففي الحج تأصيل لجملة من الأخلاق التي يحتاجها المسلم أثناء أداء فريضة الحج، ففيه الصبر بأنواعه الثلاثة: صبر على الطاعة وصبر عن الحرام وصبر على تحمل المشاق والمتاعب، وفيه تربية على البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، وفيه التواضع وإنكار الذات حيث ينضوي الجميع تحت لواء واحد لا يفضل أحد أحدا ولا امتياز لفرد على فرد.

وفيه اللين والرفق والسكينة حيث يحتاج إليه المرء في هذا الزحام الشديد والتعب، وقد نبه عليه المصطفى ﷺ: "أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس

---

[١] البخاري: كتاب "الحج"، باب "التمتع والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي".

[١] جبل معروف بمكة على يسار الذاهب إلى مكة.

بالإيضاع"[٢].

وغيرها من الأخلاق التي يتحلى بها الحاج حتى تصير لازمة وسجية له لا تنفك عنه بحال.

٨- التلازم بين الحج والجهاد:

والمشابهة بينهما ظاهرة ، فكلاهما خروج عن الأوطان ومفارقة للأهل وقرب من رب العزة تبارك وتعالى، وتعب ومشقة ظاهرة.

وقد تلازم ذكرهما في كتاب الله تعالى في سورة البقرة وآل عمران، وفي سورة الحج بعد الحديث عن بعض المناسك قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج:٤٠] فالحاج يرجع وقد عاهد الله تعالى على إعلاء كلمته ونصره في كل موطن وأهم موطن هو الجهاد في سبيله تعالى.

٩- الحج يعطي التصور الصحيح للعبادات:

هذا التصور الذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة، فكما أن فيه إقبال على الله تعالى وزهد في متاع الدنيا وترك لزخرفها وزينتها وتحريم لبعض أنواع الطيبات في أوقات الحج جعل الله تعالى فيه بعض المنافع أيضا ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾[الحج:٢٨].

فلا تعارض في التصور الإسلامي الصحيح للحياة بين الحياة الطيبة ومتطلباتها وبين الآخرة والعمل لها، فكلاهما مطلوب للمسلم، وقد أباح الله تعالى أثناء فريضة الحج الابتغاء من فضل الله تعالى بالتجارة والتربح ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة:١٩٨].

وهذا واضح أيضا في تصور الحجيج في دعائهم حيث يطلبون من خير الدنيا والآخرة ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا

---

[٢] البخاري: كتاب "الحج "، باب "أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة وإشارته إليهم بالسوط ".

عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة:٢٠١].

١٠- إرهاب أهل الكفر والضلال بهذا الاجتماع العظيم:

فوحدة المسلمين في هذه الشعيرة المباركة هي أشد على الكفار من وقع السيوف، يعلم الكفار بهذه الشعيرة أن المسلمين قادرون على الاجتماع على كلمة واحدة رغم تباعد أماكنهم واختلاف ألسنتهم وتنوع مشاربهم، ومن هذا المقصد إرسال النبي ﷺ علي بن أبي طالب بصدر سورة براءة ليتلوه على المجتمعين في الحج في السنة التاسعة من الهجرة.

١١- إقامة ذكر الله تعالى:

والذكر هو مقصود العبادات التي تسعى لتحقيقه، وهو واضح في الحج غاية الوضوح﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ ﴾[الحج:٢٨]، ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا ﴾[البقرة:١٩٨-٢٠٠].

فيسعى الحاج في أن يكون ذاكرا لله تعالى في كل أحواله كما كان في الحج ذاكرا لله تعالى على الدوام.

١٢- تحقيق عبودية المراقبة :

فالحاج يؤدي أعمال الحج في أوقات محددة وبكيفيات معلومة دون زيادة أو نقصان مراعاة لأمر الله تعالى، يراقب الله تعالى في كل أفعاله حتى لا يقع محظور شرعي، لا يستطيع أن يخالف في شيء ولو يسير لأنه يعلم أن الله تعالى مطلع عليه يراقب أعماله.

١٣- التعود على اغتنام الأوقات :

فأعمال الحج كثيرة متنوعة تؤدى في أماكن متفرقة في مدة محدودة، لو خرجت

عن وقتها المحدد لها لفسد الحج – على اختلاف التجاوز – وبالنظر إلى أعمال الحج التي تؤدى في خلال أربعة أيام أو خمسة لوجدنا أعمالا عظيمة قد يعجز المرء عن أدائها في غير هذه الأوقات، لكن الحج يدربه على الاستفادة من الوقت وألا يضيع جزءا من وقته دون عمل.

١٤- التعود على أن يتحمل المرء المسؤولية وتبعات الخطأ:

وهذا واضح في إيجاب الفدية على من أخطأ في عمل من أعمال الحج فيتعلم المسلم تحمل مسؤوليته عن أفعاله ومواجهة نتيجة أعماله، ثم يعوده أيضا على التكفير عن أخطائه ومحاولة التقرب إلى الله تعالى بما يرفع السيئات ويكفرها.

١٥- التعلق بعالم الغيب:

وفي الحج تعلق بالغيب، فعبادة الله تعالى عن طريق رموز وأشكال تدل على عالم الغيب، ذلكم العالم العظيم الذي استأثر الله تعالى بعلمه فيؤدي الحاج العبادات والمناسك والمشاعر وهو يعلم أن المقصد أهم وهو الانقياد لله تعالى الاستسلام، الإيمان بالغيب الذي هو أهم مقومات الشخصية الإسلامية المتوازنة.

وفي الحج سوى ذلك حكم عظيمة ومقاصد جليلة لا يفقهها إلا من تدبر وتأمل ونظر إلى المقاصد والأهداف.

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ييسر لنا أداء فريضة الحج، إنه القادر على ذلك.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.